

اللغة الوحيدة التي لا تورث معنى ثانيا هي الرياضيات

رولان بارت: طالما يوجد موت ستكون هناك أسطورة

لعب الفيلسوف والنقاد واللغوي والسيميولوجي والبنوي وما بعد البنوي الفرنسي رولان بارت دورا بارزا في تطور العديد من المدارس كالبنيوية والماركسية وما بعد البنيوية والوجودية، بالإضافة إلى تأثيره في تطور علم الإشارات. ومن خلال حواراته نكتشف وجوها متعددة لناقد صار علامة كبرى في تاريخ النقد الإنساني، وعبر آرائه نطالع عوالم جديدة تدعو إلى البحث والتعمق أكثر.



محمد الحماصي
كاتب مصري

يمثل كتاب "المراوغ الضجر" مختارات من الحوارات التي اختارها وترجمها لطفي السيد منصور والتي أجريت مع رولان بارت في مراحل فكرية مختلفة؛ وتقدم هذه المختارات رؤية نقدية تبلور لنا مشروعه، وتكشف تطور أفكاره ورؤاه في مختلف الحقول التي اشتغل عليها في هذا المشروع وقدرته على الدفاع عنها.

ولأن هذه الحوارات، الصادرة عن دار شهريار، تحمل ما يعرف عن صعوبة لغة بارت وثقافته، إلا أن جهد المترجم خفف إلى حد كبير من ذلك، وهنا سوف نستعرض بعضا من جوانبها كونها ليست مجرد لقاءات خفيفة، بل هي بمثابة مقالات شارحة بدقة وصرامة لما قدمه بارت من كتابات أو مفاهيم.

لغة الملابس والشفرات

في حوار بارت مع "الفيلسوف ليتيرير" في أكتوبر 1965 سُئل: متى وكيف ولماذا فكرت في كتابك "نظام الموضة"؟ فقال بارت "لقد أخذ مشروع نظام الأزياء مكانه بالضبط في حياتي مع تحرير خاتمة "ميتولوجيات"، حيث اكتشفت أو اعتقدت أنني اكتشفت إمكانية تحليل محايت لأنظمة علامات أخرى غير اللغة. منذ تلك اللحظة كانت لدي رغبة في إعادة بناء أحد هذه الأنظمة خطوة بخطوة، لغة يتحدث بها الجميع وغير معروفة للجميع. وهذا اخترت الملابس".

الشذرة تكسر ما سادعوه المغطى، والأطروحة، والخطاب الذي نبنيه من خلال فكرة إعطاء معنى نهائي لما يقال

وأضاف أن "كتابا مثل بلزاك وبروست أو ميشليه، كانوا قد عرضوا بالفعل وجود نوع من لغة الملابس. لكن كان ينبغي القيام بمحاولة تقديم محتوى فني، وليس مجازيا، ما يسمي بكل سهولة اللغات الاصطناعية" (لغة السينما، التصوير الفوتوغرافي، اللوحة، وما إلى ذلك) من وجهة النظر هذه تعد الملابس إحدى مواد التواصل مثل الطعام والإيماءات، السلوكيات والمحادثات التي لطالما كان لدي فرحة عميقة لاستفسار عنها لأنها (المواد)، من ناحية لديها وجود يومي، وتمثل

بالنسبة إلى فرصة للتعرف على نفسي على المستوى الأكثر مباشرة لأنني انشغل بذلك في حياتي الخاصة، ولأنها من ناحية أخرى لها وجود فكري وتمنح نفسها لتحليل منهجي بوسائل شكلية". وتابع بارت في إجابته عن سؤال آخر "كتابي عبارة عن خط سير، رحلة صبور، دقيقة تقريبا، ينجزها رجل ساذج يحاول أن يرى كيف شديد المعنى، كيف يشيده البشر، وفي هذه الحالة معنى ملابس الموضة؛ إنه بذلك يشكل اكتشافا للامكان، خط سير موضع المعنى، ومع ذلك فإن خط السير هذا لا يقدم نفسه على أنه رحلة شخصية، ولكن قواعد نحوية، وصف لمستويات الدلالة، والوحدات ولقواعدها التوليفية، باختصار ما يشبه تركيب الجملة الوصفية، سيتم تحرير الكتاب إذا نجح، كونه في حد ذاته مادة مركبة، في أن يظهر تحت أعين القارئ بطريقة ما متجانسة، مادة جديدة هي ثوب الموضة المكتوب".

وفي حوار عام 1970 حول كتابيه "س/ ز" و"إمبراطورية العلامات" سُئل: هل يمكن أن تحدد بدقة ما تنطوي عليه هذه التأكيدات بالنسبة إلى حالة التأويل والتحليل ذاتها، الشفرات الخمسة التي بدت لك أنها تحكم في قصة بلزاك القصيرة "سارازين" إنتاج المعنى؟ رد بارت "في الحقيقة لقد ميزت بالفعل خمسة مجالات أو شفرات دلالية كبيرة، اعترف أنني لا أعرف ما إذا كان لهذا التقسيم أي رسوخ نظري، وهذا يتطلب القيام بتجارب ماصلة على نصوص أخرى".

أول مجال هو "شفرة الأحداث السردية (أو الشفرة المنظمة للأحداث والتصرفات، وهو مصطلح مستعار من البلاغة الأرسطية)، مما يجعلنا نقرأ بدقة القصة كتاريخ، سلسلة من الأحداث".

والمجال الثاني هو "الشفرة الدلالية بالمعنى الدقيق، التي تجمع بين مدلولات مزاجية ونفسية وبيئية بدرجة متفاوتة. إنه عالم الدلالات الإيحائية بالمعنى الجاري للمصطلح؛ عندما مثلا بهدف بورتريه شخصية بوضوح إلى توصيل رسالة "إنه عصبي، ولكن من دون أن تذكر أبدا كلمة العصبية"، تصبح العصبية مدلول البورتريه".

وثالثا "الشفرات الثقافية، الممتدة على نطاق واسع جدا، أي جميع المراجع، والمعرفة العامة للحصر التي يستند عليها، وكذلك المعرفة النفسية، الاجتماعية والطبية، إلخ. هذه الشفرات غالبا ما تكون قوية جدا خاصة عند بلزاك".

ونجد رابعا "الشفرة التاويلية التي تغطي إنشاء اللغز، واكتشاف الحقيقة التي ي طرحها اللغز، إنها بشكل عام الشفرة التي تحكم كل الحركات المشيدة على النموذج الشرطي".



أعمال بريخت أيديولوجية وفيها تقدير للذة



النص الأدبي صوت مجسم

مثلا، بكل ميدان قراءة الكلاسيكيات، في المقابل فإن المتعة هي نظام القراءة أو التلطف، الذي نضع من خلاله الذات، بدلا من أن تتكون وتختبر تجربة الانفاق التي هي المتعة بالمعنى الدقيق".

الشذرة والهايكو

لفت بارت إلى أن ميله إلى الشذرة "ميل قديم جدا داخلي، أعيد تفعيله في كتاب "ب. بقلمه"، عند إعادة قراءة كتيبي ومقالاتي، وهو ما لم يحدث لي من قبل، وجدت أنني كنت أكتب دائما وفق صيغة الكتابة القصيرة، التي تنطلق عبر شذرات، أو لويحات، أو فقرات معنونة، أو مقالات. ثمة فترة كاملة من حياتي لم أكتب فيها سوى مقالات، وليس كتيبا. هذا هو الميل للشكل القصير ما يتم منهجته الآن. هو ما ينطوي على وجهة نظر ذات أيديولوجيا أو أيديولوجيا مضادة للشكل، ذلك لأن الشذرة تكسر ما سادعوه المغطى، والأطروحة، والخطاب الذي نبنيه من خلال فكرة إعطاء معنى نهائي لما يقال، وهذه هي القاعدة الأساسية للبلاغة في القرون السابقة، مقارنة بغضاه الخطاب المشيد، فإن الشذرة هي تخريب، انقطاع، تقييم نوعا من رذات الجمل، الصور، الأفكار، دون أن يأخذ أي منها شكلا نهائيا".

وأشار بارت إلى أن الهايكو شيء آخر "إنها المستقبل الأساسي لموسيقى الشذرة، التقبض بها في طبيعتها التاريخية الواقعة خلال رحلاتي إلى اليابان. إنه شكل أكن له إعجابا عميقا، أي رغبة عميقة، إذا كنت أتخيل نفسي أكتب الآن أشياء أخرى، فإن البعض منها سيكون على نظام الهايكو. والهايكو شكل قصير جدا، ولكنه، على عكس الحكمة، وهي شكل قصير جدا أيضا، يتميز بصممه. لا يولد معنى، ولكنه في نفس الوقت ليس بلا معنى، إنها دائما نفس المشكلة؛ لا تفصح المجال للمعنى، ولكن لا تغادره تحت تهديد الانضمام إلى أسوأ المعاني، معنى اللامعنى".

وتابع "في كتابي "ب. بقلمه" هناك بعض أنواع الهايكو التي لم تقدم على الإطلاق في شكل شعري، والتي دعوتها "سجل زمني للأحداث"؛ تكريات طفولتي وشبابي، وهي تقدم في جملة أو اثنتين أو ثلاثة على الأكثر التي لها هذه الخاصية على الأقل، أمل أن يكون ذلك - مع أنه من الصعب جدا أن تتحقق - أن تكون كامدة تماما. الهايكو، إنها إلى حد ما ضد الإنشاء، ولذلك إنه من المشروع أن يتم الجمع بين الصورتين".

ما يمكن تجميعه تحت اسم مذهب الهيدونية الذي عفا عليه الزمن تقريبا، وخصوصا في موضوع فن العيش. هذه أشياء كنت قد نوهت عنها من قبل بشكل غير مباشر، مثلا عندما تحدثت عن علاقة بين المسرحي الألماني برتولد بريخت وسيجاره، علاوة على ذلك، في كل أعمال بريخت التي لا يمكن إنكار أنها أيديولوجية على نحو أصيل، ثمة تقدير للذة، هناك إذا في ما يتعلق بي اصطلاح بمسؤولية عن هيدونية معينة، والعودة إلى فلسفة سيئة السمعة، ومجموعة منذ قرون. أولا من قبل الأعراف المسيحية، ثم تجدد هذا القمع بوسائل الأعراف الوضعية والعقلانية وكان أو يكون للأسف، في طريقه إلى ذلك مجددا من خلال أخلاق ماركسية معينة".

وأوضح أن المبرر الثاني لهذا الانبعاث، لهذه العودة إلى كلمة "اللذة" هو لأنها تسمح باكتشاف معين للذات الإنسانية، فعندما نحاول التمييز بين "اللذة" و"المتعة" وعندما نطرح مشكلة للغة، يعرفها التحليل النفسي جيدا، وتهم من نسيمهم الطبيعية.

وأشار بارت إلى الفرق بين اللذة والتمتع "اللذة ترتبط باتساق الأنا، الذات، الذي تضمنه قيم الراحة، البهجة، واليسر والنسبة إلى، إنها ترتبط

من الصعب جدا الاعتراف بذلك انطلاقا من ثقافة كلاسيكية مثل ثقافتنا، لأن لغتنا، مثل قائمة طعامنا، جامدة للغاية ومركزية للغاية، حيث إنها كانت قد قننت في القرن السابع عشر من قبل مجموعة اجتماعية صغيرة".

يرى بارت ردا على سؤال حول تركيبة اللغة وعلاقتها بفكر اللعب أن "اللغة تركيبية نعم، ولكن بشرط رفع التابو عن الكلمة إذا تم استخدامها، لأنه لا يوجد فيها شيء ما انتقاصي إلى حد ما مقارنة بمثال إنساني معين. ومن ناحية أخرى، أؤيد فكرة اللعب تماما، أحب هذه الكلمة لسببين، لأنها تستحضر نشاطا لعبيا حقا، ولأن اللعبة أيضا لعبة جهاز، آلة، تلك الحرية الصغيرة جدا الممكنة في ترتيب عناصرها المختلفة. اللغة هي متعة التصنيع والاشتغال، إنها تشير إلى التحليل النفسي للذة، وفي الوقت نفسه إلى ديناميكية في آن مقيدة ومرنة من حيث الاشتغال، وترتيب القطع في ما بينها، يمكننا أن نقول إنها صوت مجسم، أعني بذلك أنها فضاء، إنها تضع الأفكار والمشاعر في مكانها حسب المسافات والإحجام المختلفة.

من الواضح، إذا قلت "دخل وأغلق الباب" أنها ليست جملة تحتوي على الكثير من التجسيم الصوتي، ولكن النص الأدبي بالفعل هو صوت مجسم".

وفي مقابلته مع "براتييك" جاءت بعنوان "عشرون كلمة متاحة لدى رولان بارت" أوضح الكثير من رؤاه ومفاهيمه وتحدث عن بعض المؤلفين الذين يكن لهم أهمية، وقال بارت عن كلمة "اللذة" وظهرها لديه "لقد ظهرت بطريقة سوف أسميها تكتيكية، فاليوم شجرت أن اللغة الفكرية خضعت بسهولة شديدة لضرورات مدعي الأخلاق الذين يفرغون أي مفهوم من التمتع، وكرد فعل، أردت إذا إعادة إدخال هذه الكلمة، في مجال الشخصي، ليس بفرض الرقابة عليها ولكن لإطلاق مكوناتها وإزالة قمعها".

وتابع "إنها حركة تكتيكية داخل نظام الأفكار التي تجد في طريقها تفسيرات، وتحيط نفسها بأسباب، السبب الأول هو أنني أعلق على المستوى الذاتي بعض الأهمية على



رولان بارت
المراوغ الضجر